



كلمة العدد

ان الذين درسوا التاريخ البشرى دراسة متعمقة ، وسبروا غوره ، وعرفوا ظاهره من باطنه وجليه من خفيه ، و وقفوا على جلاله و دقائقه يعرفون أن لكل عهد من عهود التاريخ مسائل مختلفة ، ومشاكل مختلفة ، وأحوال خاصة ، وظروف خاصة ، وأوضاع خاصة ، ولكن على الرغم من هذا الاختلاف وهذه الفروق نجد أن هناك روحا أساسية تصل حاضر القوم بغابرهم ، وتنبتهم فى حالهم عن مستقبلهم .

مثل التاريخ فى ذلك كمثل الكائن الحى الذى تمر عليه أدوار مختلفة ، و عهود متغيرة ، ومراحل متطورة . فيمر بالصغر والمراهقة ، ثم يدخل فى عهد الشباب ، ويتمتع بريعانه ويفتخر برونقه وغضارته ، ثم تنتابه الكهولة والشيخوخة ، ثم يرد الى أزدل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا . وتختلف مسائله ومشاكله ، وتتغير ضروراته وحاجاته ، وتتجدد آراءه ونظرياته ، وتتبدل عاداته وخصائله فى كل عهد من هذه العهود ، وفى كل دور من هذه الادوار .

ولكن مع هذا الاختلاف الدائم والتغير المتواصل تبقى روح ذلك الكائن الحى كما كانت ، وتبقى شخصيته الاصلية على حقيقتها ، وتتشابه مسائله ومشاكله ، وتتماثل ضروراته وحاجاته . ولاشك أن

هناك روحا واحدة لجميع مسائله ومشاكله ، مثل روحه المتحدة السارية فى جسده منذ طفولته الى أن يبلغ الى أرذل العمر ، ولاريب أن هناك تسلسلا حيويا فى ضروراته و حاجاته مثل تسلسل جسده الحيوى ، وأن هناك شخصية دائمة لآراءه ونظرياته مثل شخصيته هو . وتبقى هذه الشخصية الفكرية فى اكثر الاحيان من البداية الى النهاية . وكم من عالم ومفكر رأينا فكره الاساسى باقية مع بقاء وجوده فى عالم الكون ، لاينفك منه فى حال من الاحوال . ولئن اضمحلت أعضائه ، وضعفت جوارحه ، واسترخت عظامه ، وانهارت صحته ، وضاعت ذاكرته ، ولكن يبقى فكره الاساسى حيا خالدا .

ولاتختلف حالة الأمم والأديان والمؤسسات والمجتمعات من حالة الأفراد . وان شئت فخذ تاريخ أمة من الأمم ، فانك سوف ترى أن أحوالها و أوضاعها فى عهدها الابتدائى تختلف عن أوضاعها و أحوالها فى عهدها المتوسط ، وسوف ترى أن مسائلها ومشاكلها فى عهدها المتوسط غير مسائلها و مشاكلها فى عهدها الأخير ، وسوف ترى أن الادواء التى تعانى منها الأمم فى كهولتها غير الادواء التى تعانى منها فى أرذل عمرها . ولكن الطبيب الحاذق الذى يعالج ادواء هذا الكائن الحى منذ نعومة أظفاره يعرف أن هذا الاختلاف فى هذين النوعين من الادواء والامراض انما هو اختلاف ظاهرى ، والفرق بينهما سطحى ، لا يصل الى قرارة الامور .

فكل من لديه بصيرة و معرفة فى فلسفة نهوض الأمم و زوالها ،

وأسباب سعادة الشعوب وشقائها ، وعوامل انحطاط الاجيال وازدهارها ، وكل من درس نفسيات الأمم والاسباب التي تؤدي اليها ، والعلل والعوامل التي تلعب دورها في تكوينها يعرف أن هناك علة وراء هذا الداء الاجتماعى الذى يعانى منه الشعب الفلانى ، وأن هناك سببا للمرض الشعبى الذى يصاب به المجتمع الفلانى .

★ ★ ★ ★

ان من الادواء التى أصابت العالم الاسلامى فى ماض غير بعيد تخاذلا فكريا نرى آثاره فى كل مكان ، واستسلاما حضاريا نشاهد معالمه كل يوم ، وانهزاما ثقافيا نجد أماراته فى عالمنا الاسلامى . ومن أهم هذه الآثار و المعالم تأثر المسلمين بحركة الاستشراق — ذلك الداء الذى جاء به وبويلاته الاستعمار الغربى ، بل الذى سبقه الى العالم الاسلامى كطليعته ورائده الذى لا يكذب أهله . وما أحسن ما قاله أحد العلماء المسلمين عن الاستشراق قال : انه وليد غير شرعى لأبوين غير شرعيين ، وهما التبشير الذى خطط له ، والاستعمار الذى غذاه ورباه . ومع أن الاستعمار الغربى بدأ ينهار على المستوى السياسى وطفق يتقهقر من مضمار الاستعباد العسكرى ولكنه يتواجد فى العالم الاسلامى تواجدا قويا بفكره المسيطر وحضارته القائمة و ثقافته المنتشرة بين المسلمين . وأدى فكره وحضارته و ثقافته فى العالم الاسلامى الى كل ما أدت اليه هذه العوامل الثلاثة فى الغرب من انحطاط خلقى وانهيار حضارى و فوضى

فكرية ، فرمتنا بدائها وانسلت .

وما هو أدهى وأمر أن المسلمين أو العدد الكبير من مثقفيهم
ومستغربيهم لا يرون بهذه النتائج بأسا ، ولا يستعدون لمقاومتها ،
ولا يشمرون عن ساعد الجد لسد الطريق في وجه هذا السيل الجارف .
بل يتهافتون على كل ما نسب الى الغرب أو وصف بالحدائث تهافت
العطشان على الماء ، ولا يعرفون أنه لاخير في أرب ألقاك في لهب ،
وما كل بارقة تجود بمائها .

بدأت حركة الاستشراق بادئ ذي بدء على أيدي الآباء والرهبان
والمسحيين في فاتيكان . وكانوا من قبل يأتون الى المراكز العلمية
الاسلامية في اندلس - ذلك الفردوس الاسلامى المفقود - ليتعلموا
علوم المسلمين ويتثقفوا بالثقافة الاسلامية على أيدي العلماء
المسلمين . وكانت الطلبة المسيحيون يتناوبون الى المدارس
والجامعات الاسلامية فى قرطبة وغرناطة وطليلطة و صقلية . وكانوا
يتأثرون بالفكر الاسلامى وعمقه وسعته ، وبالشريعة الاسلامية
وصلاحيته لحل مشاكل البشر ، وبالمجتمع الاسلامى وسموه
وسماحته ، وبالحضارة الاسلامية المزدهرة المتصفه بخصائص ومزايا
لاتدانيها فيها حضارة أخرى . وكان أحبارهم ورهبانهم يشعرون بالضيق
والتوحش أمام أساتذتهم المسلمين ، فانهم لم يكونوا يستطيعون أن
يدافعوا عن معتقداتهم المسيحية ويقوموا أمام الهجوم الفكرى
الاسلامى . فرأى مسئولو فاتيكان من اللازم أن يعتنوا بدراسة العلوم

الاسلامية ، ويكونوا على معرفة من الفكر الاسلامى والثقافة الاسلامية ، أولا ليتسنى لهم الدفاع عن عقائدهم ، وثانيا ليعدوا مبشريهم رجالا ونساءً ، شيوخا وشبابا ، للجدال والنقاش مع المسلمين وتوجيه الاعتراضات على الفكر الاسلامى . هكذا كانت بداية هذه الحركة ، ولبثت على هذا المنوال بضع سنين ، حتى قامت على قدم وساق .

كانت حركة الاستشراق حركة سلبية من أول يومها ، ولم يكن أساسها على هدف ايجابى بناء . بل كانت تهدف الى الدفاع عن عقيدتهم الدينية التى وضعها لهم القديس بولس ، وكانت تقصد الى تشويش أذهان المسلمين و افساد عقليتهم . ومع أن أهدافهم لازالت متحدة متمثلة عبر تاريخهم ، وعلى الرغم من أن فكرهم السلبى الذى يتناقلونه على اختلاف بيئاتهم وتباين أحوالهم ما برح على هيئته القديمة ، ولكن المراحل المختلفة التى مرت بها هذه الحركة أعطت كل واحدة منها طابعا خاصا ولونا خاصا لهذه الاهداف .

فنرى أن حركة الاستشراق فى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت تهدف الى تمسيح المسلمين اذا جاز التعبير وتنصيرهم . ونرى مظاهر هذه الأهداف فى كتابات كثير من الآباء المسيحيين والمبشرين النصارى الذين ظهروا فى زى العلماء والمستشرقين . ولكن بعد جهود دامت قرنين أو اكثر وصلوا الى نتيجة أن تنصير المسلمين وتمسيحهم ليس بالامر السهل الهين . فغيروا استراتيجيتهم ،

وركزوا جهودهم على الاشادة بالحضارة الغربية و ابراز مزاياها المزعومة والاعلان بفضلها على الحضارة الاسلامية والنيل من الثقافة الاسلامية والانتقاد على الحضارة الاسلامية و ابراز ما زعموا أنه من جوانب النقص فيها والتأكيد على أن الحضارة الاسلامية حضارة محلية وليست عالمية ولا يمكن لها أن تضمن للبشرية النجاح الثقافى والفوز الحضارى .

وكان بين هؤلاء المستشرقين جمع غير قليل كانوا يعملون من أجل توفير المعلومات والاحصاءات عن الاسلام والمسلمين والبلاد الاسلامية المختلفة لمصالح المخابرات وهيئات التحقيق وبعثات الاستطلاع ، حتى ولوزارات الخارجية والدفاع ، وأصبحوا بذلك طليعة الاستعمار و وسيلة استعباد الشعوب ، وما أسوأ هذا الاستعمال المؤسف للعلم والأدب! فمن ذا الذى لا يعرف كتابات أولف كير و امثاله عن المسلمين الأفغان ؟ ومن ذا الذى لم يقرأ رحلات الرحالين الاوربيين والامريكان الذين تجولوا فى البلاد الاسلامية فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ؟ ومن ذا الذى يجهل دور داوتى وقلبي وأمثالهم فى الحياة السياسية فى الجزيرة العربية ؟

ولكن لا يعنى سرد هذه الحقائق التاريخية المؤلمة أننا ننكر خدمات بعض المستشرقين فى سبيل احياء التراث الاسلامى العلمى التليد . فان منهم فريقا يقومون بأعمال علمية شهدت بقيمتها العلمية أجيال المسلمين . وهل يمكن لأحد أن يقول ان المعجم المفهرس

لألفاظ الحديث النبوي الشريف الذي قام بجمعه وتأليفه جماعة من
المستشرقين تحت رئاسة الاستاذ فنسك عمل لاقيمة له ؟ ومن ذا
الذي يستطيع أن لا يعترف أن تاريخ آداب اللغة العربية الذي دونه
المستشرق الالمانى بروكلمان مصدر علمى كبير ؟ ومن ذا الذى لا
يقدر جهود المستشرقين الذين قاموا بتحقيق المخطوطات الاسلامية
القديمة التى كان المسلمون يقرأون عنها فى كتب التاريخ والرجال
والفهارس فقط ؟



لازال المسلمون فى قضية المستشرقين بين طائفتين . طائفة
يبالغون فى تعظيم قدر المستشرقين ، ويغنون فى اجلال شانهم واعلاء
مكانتهم ، ويعتبرونهم أعلام الفكر وائمة الهدى . وأغلبية هذه الطائفة
تحتوى على تلامذة المستشرقين الذين يحذون حذوهم ويقتدون
بقدوتهم ويستنون بسنتهم ، ويمكن أن نسمى هؤلاء التلامذة الابرار
لأساتذتهم والافياء لكبارهم مستغربين ، فانهم قوم ارتضعوا من ثدى
أمهاتهم الفكرية ويأنسون بأبائهم فى العلم ، فان الثكلى يجب الثكلى .
ومن هذه الطائفة أمة لا يعرفون كثيرا عن الاستشراق وتاريخه وأهدافه ،
بل كلما راقتهم مقالة لأحد المستشرقين ، أو وقعت منهم موقعا حسنا ،
أو وجدوا فى قراءة شئ لهم لذة وبهجة حكموا عليهم جميعا بالحسن
والقبول . وليس من عادة العاقل الحكيم الحذر أن يصدر حكما عاما
بالحسن والقبول على علم أو مؤلف لم يستوعبه بالبحث والدراسة

لمجرد أنه قرأ منه شيئاً ساحر النفوس وخلاب الأسلوب بغض النظر
عمالم يقرأه ولم يعرفه .

وطائفة أخرى ليست بأقل بعدا من العدل والانصاف من الطائفة
السابقة . وهم الذين لا يعترفون لذى فضل فضله ، ويرون أن كل من
درس العلوم الإسلامية العربية في البلاد الغربية فمن أجل عدائه
للإسلام وبغضائه للمسلمين . وان تعجب فعجب قولهم أن كل من قرأ
كتب المستشرقين ، أو راقه شيء منهم ، أو اتخذ أسلوبهم في البحث
والتأليف ، أو اعترف بفضل أولى الفضل منهم ، فقد خرج من رتبة
الإسلام ، أو يخشى أن يتطرق إلى دينه الفساد ، ويتسرب إلى فكره
الزيف والضلال .

فكانت الحاجة ماسة إلى أن يجتمع رجال من أهل العلم والفكر
في العالم الإسلامي ويدرسوا قضية المستشرقين ، وما قاموا به من
أعمال علمية ، ومزاياها وجوانب الضعف والنقص فيها ، لتتبلور وجهة
نظر العالم الإسلامي الصحيحة نحو حركة الاستشراق ، وليكون الناس
على بصيرة من الأمر ، وليصل المسلمون إلى موقف متزن بين طرفين
ووسط بين نهايتين ، وليتراءى لهم الرأي القائم على ميزان العدل
والانصاف والتقدير ، لاوكس فيه ولاشطط .

★ ★ ★ ★

وكتب الله فضل التقدم في هذا الاتجاه والسبق في هذا المضار
للمجمع الإسلامي الشهير مجمع دارالمصنفين بالهند ، المعقل العلمي

الاسلامى العريق الذى لا يعتز به مسلموا الهند و باكستان فحسب بل الذى يفتخر به العالم الاسلامى كله . فدعا هذا المجمع الى عقد ندوة علمية عالمية حول الاسلام والمستشرقين ، واشترك فيها عدد لا بأس به من علماء الهند و باكستان وبعض البلاد العربية الى جانب عديد من أهل العلم من الاصل الهندى أو الباكستانى الذين يقطنون فى بلاد غير مسلمة . واستمرت أعمال الندوة لمدة ثلاثة أيام ما بين ٢٦ - ٢٨ ربيع الثانى ١٤٠٢ هـ الموافق ٢١ - ٢٣ فبراير ١٩٨٢ م .

وافتح الندوة سماحة الاستاذ الكبير السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى مدير ندوة العلماء بالهند والرئيس الحالى لمجمع دار المصنفين . فالقى خطابا رائعا بديعا هزّ العواطف و حرك المشاعر ، وتأثر الحاضرون بالاخلاص والحماس الشديدين اللذين كان الخطاب متدفقا بهما ، حتى ذرفت العيون وانحدرت الدموع على خدود كثير من الحاضرين . وكان اكثر تأثرا بالخطاب هو سماحة الأستاذ البهائى السيد صباح الدين عبدالرحمن المؤرخ الكبير والاديب البارع والامين العام للمجمع . فلم يتمالك على نفسه لما أشاد الخطيب الجليل بجهود العلامة شبلى النعمانى مؤسس دارالمصنفين وتلميذه الرشيد الجليل العلامة الفذ السيد سليمان الندوى الامين العام الأول للمجمع . وكانت هذه الكلمة الافتتاحية من أهم بحوث الندوة وأحسنها . فعالج فيها العلامة الندوى قضية الاستشراق بشىء من التفصيل والدقة . وكان موقفه تجاه المستشرقين متصفا بالاتزان والاعتدال والانصاف مثل

مواقفه السابقة الكثيرة . وهكذا كانت الحال فى اغلبية البحوث والمقالات التى قدمت الى الندوة ، فكان طابعها الخاص هو الاتزان والاعتدال . واتفقت كلمة المشتركين أن البحث القيم الذى القاه المؤرخ الاسلامى الشهير والكاتب الاسلامى المعروف الدكتور خليك أحمد النظامى رئيس جامعة على كره الاسلامية سابقا من أحسن البحوث وأجودها من حيث المحتوى والتقديم والاتزان والاعتدال .

واشترك فى الندوة وفد من مجمع البحوث الاسلامية تحت رئاسة مدير المجمع الدكتور عبدالواحد هالى بوتا . وكان الوفد مكونا من ستة أعضاء أحدهم كاتب هذه السطور . ونسجل هنا شكرنا الجزيل وامتناننا العميق وتقديرنا البالغ على الحفاوة والتكريم اللذين عاملنا بهما اخواننا المسلمون فى الهند ، وعلى رأسهم سماحة الاستاذ الندوى وسماحة الاستاذ صباح الدين ، فجزاهم الله خير الجزاء .

وفى الختام لايسعنا الا أن ندعو الله تعالى أن يوفق القائمين على دارالمصنفين لما فيه خير الاسلام وصلاح المسلمين وأن يتقبل جهودهم وأن يبارك فى مساعيهم ، انه سميع مجيب .

محمود احمد غازى

